قسم الروسي

خلاصة المحاضرة الأولى والثانية

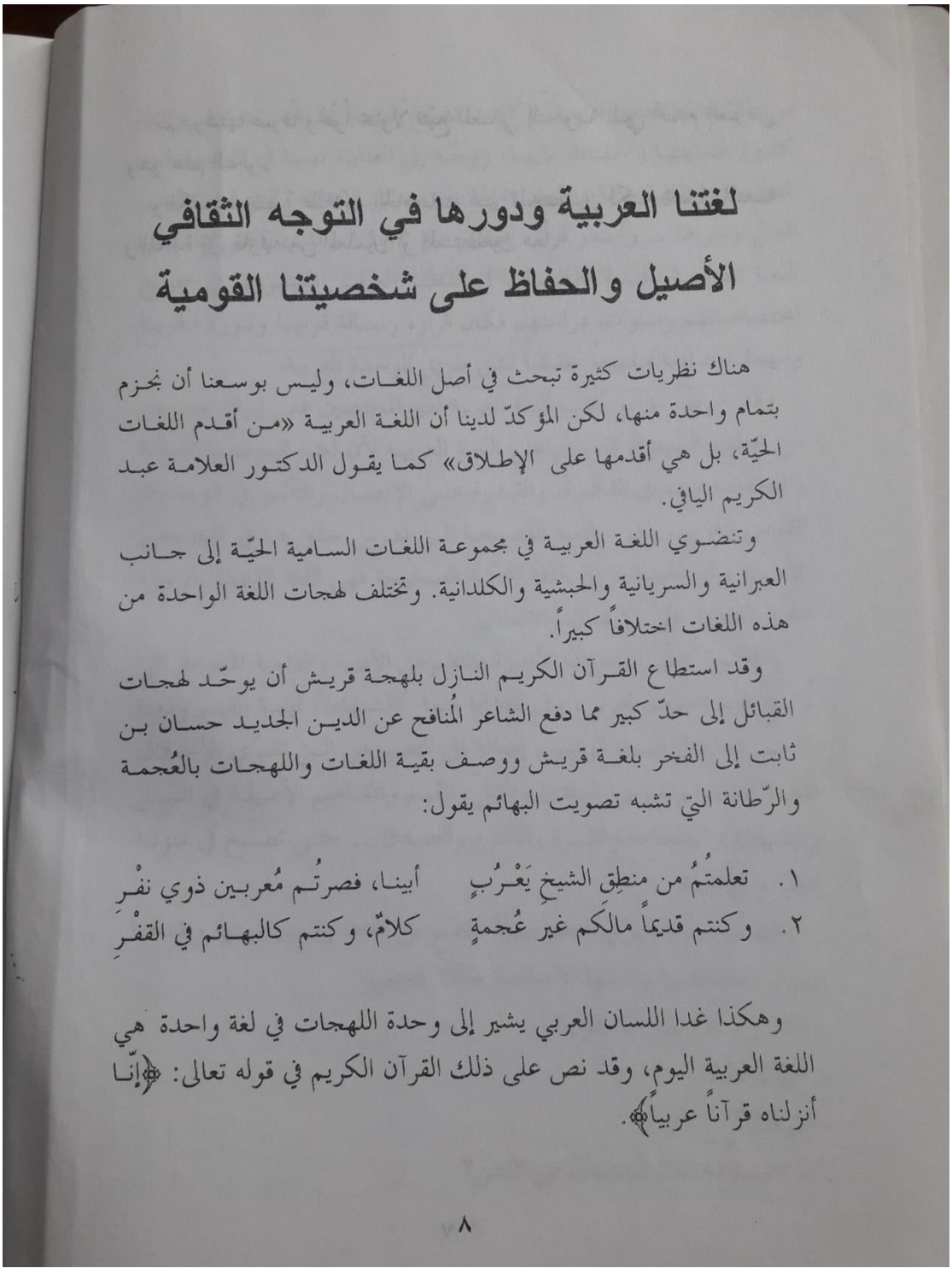

لغتنا العربية ودورها في التوجه الثقافي الأصيل والحفاظ على شخصيتنا القومية

هناك نظريات كثيرة تبحث في أصل اللغات، وليس بوسعنا أن نجزم بتمام واحدة منها، لكن المؤكدّ لدينا أن اللغة العربية «من أقدم اللغات الحيّة، بل هي أقدمها على الإطلاق» كما يقول الدكتور العلامة عبد الكريم اليافي.

وتنضوي اللغة العربية في مجموعة اللغات السامية الحيّة إلى جانب العبرانية والسريانية والحبشية والكلدانية. وتختلف لهجات اللغة الواحدة من هذه اللغات اختلافاً كبيراً.

وقد استطاع القرآن الكريم النازل بلهجة قريش أن يوحّد لهجات القبائل إلى حدّ كبير مما دفع الشاعر المُنافح عن الدين الجديد حسان بن ثابت إلى الفخر بلغة قريش ووصف بقية اللغات واللهجات بالعُجمة والرّطانة التي تشبه تصويت البهائم يقول:

١. تعلمتُمُ من منطِقِ الشيخِ يَعْرُبٍ أبينا، فصرتُم مُعربين ذوي نفْرِ
٢. وكنتم قديماً مالَكم غير عُجمةٍ كلامٌ، وكنتم كالبهائم في القفْرِ

وهكذا غدا اللسان العربي يشير إلى وحدة اللهجات في لغة واحدة هي اللغة العربية اليوم، وقد نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إنّا أنزلناه قرآناً عربياً﴾.

واستطاعت هذه اللغة الحيّة والفتيّة أن تواكب سيرة أهلها السياسية والحضارية، وغدت جزءاً أساسياً من كيان المجتمع الناطق بها، فحملت لواء الحضارة ونقلته إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولعبت بذلك دوراً هاماً في تشكيل الوعي الانساني، ونقل منتجاته الثقافية الروحية محققة الاتصال البشري على نطاق واسع.

وكانت لغة الحكم والعلم والمعرفة ولغة السياسة والحضارة والأدب، فاعتزّ بها أهلها ودافعوا عنها، لأنها رمز قوتهم، وعنوان تفوقهم، وأقبلوا عليها يتدارسونها إقبال المحبين، فأغنتها قرائحهم حتى اتسّعت لحاجات حياتهم، ولألوان علومهم، وعلوم الأمم الأخرى، التي تُرجمت إليها.

حملت أغاني العشّاق، وتنهداتهم، وصوّرت حياتهم بحلّها وترحالها، بنعيمها وجحيمها، واحتفظت بفكر اليونان، وحكمة الهند والصين، ونُظُم الفُرس...، وقدّمت للبشرية علماً وحكمة وفلسفة وغير ذلك من العلوم ببيان ساحر.

وتمكنت اللغة العربية من حمل أفكار أبنائها، والتعبير عن مشاعرهم، وتجسيد أصالتهم القومية، تفكيراً وتعبيراً، واستقامت ألسنتهم، وقوّم أهلها لسان الداخلين من غير العرب، وبنانهم، فصالت أقلامهم في ميادينها، وتصرفوا في المنظوم والمنثور. يساعدهم في ذلك خصائص للغتهم ليست في غيرها من اللغات.

ونقلت أقلام كتّاب العربية تراث العصور لتقدمه هدية قيّمة للإنسانية فكانت بذلك لغة الحياة المشحونة بالفكر الانساني العام. وبدت وكأنها الوسيلة الوحيدة التي تصل التراث القديم بحضارة اللحظة، وتزاوج الحضارات المعاصرة، وتحفظ للإنسانية معارفها المتراكمة.

«ونظراً لهذه المكانة التي تحتلها اللغة في سلم القيم الفكرية الاجتماعية والحضارية والتاريخية، جلعها المنظّرون والفلاسفة على رأس قائمة المقومات الأساسية للقومية والأمة». عبّر عن ذلك (ماكس مورو) قائلاً:

«وباللغة وحدها يندمج الفرد بالمجتمع، ويتلقى تراث الأمة الفكري والشعوري والأخلاقي والاجتماعي كلّه، التراث المنحدر من قرائح الكتاب والشعراء والمفكرين السالفين منهم والمعاصرين».

وجعلها (فيخته) أساس القومية، ورابطها الطبيعي ، فاللغة والأمة في نظره يتلازمان تلازماً قويّاً. أما (هيردر) فيرى أن اللغة مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين ويرى أن قلب الشعب ينبض في لغته وروحه تكمن في لغة الآباء والأجداد.

واللغة هي التي تحدد موقف أبنائها من غيرهم وتشكّل عاملاً هاماً في التحالفات البشرية، وكذلك في الصراعات، فعندما سئل (بسمارك) عن أفظع أحداث القرن الثامن عشر، أجاب: إنه اتّخاذ سكان المستعمرات الانجليزية في شمال أمريكا لغة مستعمريهم لغةً رسميةً لهم. وكان يأمل أن يتخذ هؤلاء السكان اللغة الألمانية لغة رسمية لهم ليضمن ولاءهم، حيث توجد هناك جاليات ألمانية كثيرة. لقد كان حدثاً فظيعاً حقاً أدّى إلى تطور أمريكا السريع وإلى تفوقها على العالم وقيادتها للنظام العالمي الجديد وفق أهواء شركائها في اللغة (الانجليز) الذين حاربت إلى جانبهم في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

لقد قامت القومية الألمانية على أساس اللغة الواحدة، وكذلك القومية الإيطالية. وتشكّلت وحدات أوروبية عديدة على أساس اللغة كما هو الحال في الوحدة البولونية والبلغارية واليونانية... ولايمكن للمرء أن ينسى موقف الراهب الفرنسي (غريغوار) من اللغة الفرنسية حيث دعا إلى محاربة اللهجات ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة والصحيحة بين المواطنين جميعهم ليضمن بذلك وحدة البلاد. كما لايغيب عن ذهن الباحث إلزام (لينين) للمسؤولين في بلاده بإتقان لغة الشعب ضماناً للوحدة.

إن اللغة رابطة عضوية قوية وخفية تقوم على أساسها الأمة، وبدونها تنحلّ الروابط التي توحّد أبناءها، وتذوب هذه الأمة في غيرها، وتتشرذم

إلى أقليات لغوية متناحرة، وتفقد هذه الوحدات أصالتها، وتبتعد عن حضارتها وتراثها، والدليل في عالم اليوم بيّنٌ واضح لكل ذي بصيرة في الاتحاد السوفييتي سابقاً وفي يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها حيث لعبت اللغات القومية دوراً في تمزيق دول الاتحادات هذه إلى جانب عوامل مختلفة مساعدة على التفكك.

واللغة تعيش قوية وسائدة مادام أهلها أقوياء، ويذهب بريقها عندما يضعف أهلها، فاللغة والحضارة صنوان لاينفك أحدهما عن الاخر.

لقد نجح العرب في بسط لغتهم إبان حضارتهم وتفوقهم ردحاً طويلاً من الزمن، وتسابق غير العرب في تعلم هذه اللغة، مصداق ذلك الحقيقة التي نعرفها جميعاً، وهي أنهم كانوا يؤثرون استعمال اللغة العربية، ولايجهل كثيرون حسرات (آلبرو القرطبي) التي طالما رددها المؤلفون في الأدب العربي في الأندلس: «يا للحسرة! إن الموهوبين من شباب النصارى لايعرفون اليوم إلاّ لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها، ويقبلون عليها في نَهَم. وهم ينفقون الأموال طائلةً في جمع كتبها، ويصرّحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب... يا للألم! لقد أُنسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ، فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منسّق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً». ولم يكن البرو القرطبي آخر المتحسرين على لغة آبائه وأجداده الإسبان بل تحسّر معه علماء اليهود ومفكروهم وهم أكثر الخلق تعلّقاً بتراثهم وعبريتهم، فقد صاغ اليهودي (سلومون بن يهوذا) النحو العبري في قصيدة عبرية على بحر الرجز العربي تتألف من أربعمئة بيت يتحسر فيها على انصراف إخوانه في الدّين، من أهل سرقسطة عن لغتهم المقدّسة،

ويسميهم (الجماعة العمياء) إذ كان بعضهم يستعمل لغة كِدَار (kedar) أي اللغة العربية. والأمثلة على ذلك لاتعرف الحصر.

وعندما ضعف العرب، وبدأت تتفكك لحمتهم وقعوا فريسة الاستعمار الذي اجتهد على اقتلاع جذور هذه اللغة عاملاً على قطع صلة العرب بماضيهم لتنقطع صلتهم بأمجادهم وعزّتهم.

فقد مارس الأتراك سياسة التتريك ومارس الفرنسيون سياسة الفرنسة. وحاولت لجنة العمل الفرنسية المغربية التقليل من أهمية اللغة العربية، وصرف الناس عنها بإحياء اللهجات المحلية والعامية. حتى لايفهم المسلمون قرآنهم، ويمكن التغلب على عواطفهم. كما ورد في تقرير اللجنة. وكتب القاص الفرنسي (جول فرن) قصة تتحدث عن مجموعة من السياح اخترقوا الأرض إلى وسطها، ونقشوا على الصخر باللغة العربية ما يشير إلى هذه الرحلة. وعندما سُئل (فرن) عن سبب اختياره للغة العربية أجاب: «إنها لغة المستقبل، ولاشك سيموت غيرها في حين تبقى هي حيّة حتى يرفع القرآن نفسه».

وعمد أعداء الأمة العربية إلى شراء أقلام بعض أبناء الأمة العربية أو الدّخلاء عليها، فظهرت في أوائل هذا القرن وفي منتصفه دعوات إلى التّحول عن الفصحى إلى العامية، ودعوات إلى استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي.

وعندما ألّف القاضي (ولمور) كتاباً سماه (لغة القاهرة) واقترح أن تكون الكتابة بالحروف اللاتينية عام ١٩٠٢ ردّ عليه حافظ ابراهيم بقصيدته الشهيرة التي نحفظها جميعاً متحدثاً بلسان اللغة العربية:

١. رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حصاتي ... وناديتُ قومي فاحتسبت حياتي
٢. رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمتُ فلم أجزع لقول عِداتي
٣. ولدت ولمّا لم أجد لعرائسي ... رجالاً وأكفاءً وأدْتُ بناتي
٤. وسعتُ كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظاتِ
٥. فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ؟
٦. أنا البحر في أحشائه الدرّ كامنٌ ... فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي؟
٧. فيا ويحكم! أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم - وإن عزّ الدواء - أُساتي؟
٨. فلا تكِلوني للزمان، فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي
٩. أرى لرجال الغرب عزّاً ومنعة ... وكم عزّ أقوامٌ بعزّ لُغاتِ
١٠ أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات
١١ أيطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي؟
١٢ ولو تزجرون الطير يوماً عرفتم ... بما تحته من عثرةٍ وشتاتِ
١٣ سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً ... يعزّ عليها أن تلين قناتي
١٤ حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهنّ بقلبٍ دائم الحسرات
١٥ وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرقٌ ... حياءً بتلك الأعظم النخرات
١٦ أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناةِ
١٧ وأسمع للكتّاب في مصر ضجةً ... فأعلم أنّ الصائحين نُعاتي

وزعم أعداء العرب، ودعاة التحول عن اللغة العربية أنها لم تعد تصلح لغة للعصر تواكب العلم والمخترعات، ناهيك عن صيحات الضيق من قواعدها، مستلهمة لعنات الشاعر (دماذ) وهو ينشد:

١. وفكرتُ في النحو حتى مللت ... وأتعبت نفسي له والبدن
٢. وأتعبتُ بكراً وأصحابه ... بطول المسائل في كلّ فن
٣. فكنت بظاهره عالماً ... وكنت بباطنه ذا فِطن
٤. سوى أنّ باباً عليه العفا ... ء للفاء ياليته لم يكن
٥. وللواو بابٌ إلى جنبه ... من المقت أحسبُهُ قد لُعن
٦. إذا قلت هاتوا، لماذا يقال: ... لست بآتيك أو تأتين
٧. أجيبوا: لِمَ قيل هذا كذا ... على النصب، قيل لإضمار أن
٨. فقد كدتُ يابكر من طول ما ... أفكرّ في بابه أن أُجنْ

والحقّ أن لكل لغة بعض المصاعب غير أن أصول النحو لاتقتضي معرفة كل حيثيات القواعد ومصاعبها كأن نعرف أن السبب في نصب المضارع في قول الشاعر:

لست بآتيك أو تأتين

هو إضمار (أن) بعد (أو) ليصبح الشطر:

لست بآتيك أو أنْ تأتين

وقواعد العربية ليست أصعب من قواعد الفرنسية أو الألمانية وكذلك حال الإملاء فلو تتبعنا بعض الحروف في اللغة الانجليزية لوجدنا أنها أصعب من الحروف في اللغة العربية. فالصوت الواحد بالانجليزية قد يُكتب في صور مختلفة:

الياء = E, Y, I

الكاف = CH, Q, CK, K, C

وقد يرمز الحرف لأكثر من صوت:

C = الكاف والسين

وقد يرمز الحرفان إلى صوت واحد:

SH = الشين

TH = الذال

وقد تسقط بعض الحروف من النطق في اللفظ:

RIGHT يحذف في اللفظ الحرفان GH.

إضافة إلى صفة الإيجاز فمثلاً:

What is your name = ما اسمك؟

بالانجليزية ١٤ حرفاً = بالعربية ٦ حروف

إن العيب فينا وليس في اللغة يقول د. صبحي الصالح: «فما يك من عيب فهو في الباحثين العرب لا في اللغة العربية، وما تقع عليه العين من تخلف في أي ميدان من الميادين فمصدره الوحيد قلة اهتمامنا بتطوير فكرنا العلمي». فاللغة العربية لغة حضارة أبرزت طواعيتها للاكتشاف والتوليد، وهي قادرة على مواكبة المخترعات والنماء الحضاري.

وإذا كان بعضنا، بعد الذي ذكر، يسمح لنفسه بالتهاون في لغته والتحدث باللهجات المحلية وبخاصة في المدارس والمعاهد والجامعات ووسائل الاعلام المختلفة فإنه يخدم الأعداء، ويقع في الخطأ الذي وقع فيه الأوروبيون مثلاً يوم هدموا اللغة اللاتينية الأم فتحاربوا طويلاً في حربين عالميتين وحروب مختلفة بينهما، لقد ندم الأوروبيون على فعلتهم وها هم يحاولون أن يعيدوا وحدتهم بعد أن تمزقت أوصال أمتهم.

فهل يتمكنون من توحيد لغاتهم؟ إنه شبه مستحيل. يقول د.محمد حسين: «ولماذا نحن إلى مثل ما ابتُلي به غيرنا ممن لم يكرمهم الله بمثل ما أكرمنا به؟ ولماذا نشتهي أن تتبلبل ألسنتنا حتى لايفهم بعضنا على بعض كما تبلبلت ألسنة الذين كانوا مجتمعين على اللاتينية، فتفرقوا فيها، وأيّ ربح قد جنوه من بعد؟ وأي مزايا حققوها مما لم تكن تحققه لهم وحدتهم اللغوية؟ وهل وقع بعضهم في بعض، وولغ بعضهم في دماء بعض إلا من آثار هذه الفرقة اللغوية، التي جعلت منهم أمماً بعد أن كانوا أمة واحدة،

والتي ترتب عليها أن فقدوا وحدتهم المسيحية ثم لم يستطيعوا أن يعودوا إليها بحال؟!».

وإذا كانت تجربة الأمم الأوروبية لاتكفينا فهلا تعلمنا من يهود الشتات الذين يحملون عشرات الجنسيات، ويتكلمون عشرات اللغات، لكنهم يُلزمون أنفسهم بتعلم اللغة العبرية، ويجعلونها اليوم لغة للعلم والحياة في كل الميادين الإبداعية، عسكرية وفنية وسياسية وعلمية...؟

علينا أن نتمسك بلغتنا ونحفظ من خلالها تراثنا المكتوب بحروف من نور ديناً وفلسفة وعلماً وفناً وأدباً من غير تحجرٍ عند حدود الممنوع.

يجب أن نولي لغتنا ما تستحق من عناية، وننهض بها موحدة منيعة قوية، ونحقق الرسالة السامية التي تحملها أمتنا ولغتنا.

يجب أن تتوحد جهود العرب على أقل تقدير في ميادين البحوث والدراسات العلمية والمجامع اللغوية من أجل الصمود في وجه تيار اللغات الغربية، فإنّ من يستهِن بلغته يستهِن بأمّته، ومن يستهِن بأمّته يستهِن به الأقربون قبل الأغراب.